العدد الرابع عشر السنة الثانية

المنار

١٣١٥

يوم السبت ٩ صفر سنة ١٣١٧ الموافق ١٧ يونيو سنة ١٨٩٩

فهم الدين

(ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون)

(قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون)

قال مولانا الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في تفسير قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) ما مثاله بالايجاز

منح الله تعالى الانسان أربع هدايات يتوصل بها الى سعادته أولاها هداية الوجدان الطبيعي والالهام الفطري وتكون للاطفال وثانيتها هداية الحواس والمشاعر وثالثتها العقل ورابعتها الدين . ثم بين ان الهداية الاولى والثانية يشارك الانسان فيهما الحيوان الاعجم وان الانسان لا يمكن ان يصل الى كماله المستعد هو له بهما لما يعرض لهما من الخطأ وسوء الاستعمال وبعد ان ضرب المثل لهذا الخطأ وبين وجه حاجة الانسان الى العقل الذي ينتزع المعلومات الكلية من مدركات الحواس ويميز بين خطأها وصوابها قال ان العقل أيضاً عرضة للخطأ ومحل للقصور فلا يمكن ان يحيط بمصالح الانسان في افراده ومجموعه ويحدد أسباب سعادته في معاشه ومعاده ومن ثم كان الانسان في أشد الحاجة لاسيما بالنسبة لامر

المعاد ـ الى الهداية الرابعة هداية الدين وقد منحه الله اياها . ولما كان معظم قصور الحس والعقل في الانسان انما هو فيما يختص بسعادة المعاد كان بيان طريق السعادة الاخروية أهم ماجاء به الدين . وهل يعتور هذه الهداية مايعتور غيرها من الخطأ وسوء الاستعمال فيتنكب أهلها جادة السعادة ؟؟ نعم فانه كما يخطئ الانسان في ادراك المحسوسات لمرض في حواسه وفي فهم المعقولات لآفة في عقله او لسوء استعمال الحس والعقل كذلك يخطئ في فهم الدين بسبب الامراض الروحية التي تطرأ على مزاج الامة

اذا تمهد هذا فعرضنا الآن كشف الغطاء عن شبهة أوردها على الدين أصحاب مجلة المقتطف في الجزء الصادر منه في أول يونيو الذي نحن فيه عند تقريظ كتاب (تطبيق الديانة الاسلامية على نواميس المدنية) وملخص ماهنالك انه نشر في القطر المصري كتب وجرائد حاول كتابها التوفيق بين الاصول الدينية والحقائق العلمية قال (وقد يجدون ذلك سهلا لانه قلما يجسر أحد على مخالفتهم ولكن لو كان في البلاد علماء أشداء كالجلال السيوطي ... لشبت نار الحرب منذ الآن) « انظروا وتأملوا » ثم ذكر ان هؤلاء الكتاب يجيبون من سألهم عن السبب في عدم وجود هذه المدنية في ربوع المشرق بان سبب ذلك سوء فهم الدين وحمله على غير المراد منه وعلى هذا الجواب بنى شبهته الكبرى فقال (ولكن اذا قيل له ألا ينتظر من الدين ان يكون معناه واضحاً حتى لايقع سوء فى فهمه ولا يحمل على غير المراد منه وهل أساء كل علماء الشرق فهم دينهم منذ الف سنة أو حواليها الى الآن ولم يقم منهم من يحمله على المراد منه الا في هذا العصر وفي هذا العام ـ اذا قيل له ذلك لم يكن الجواب عليه بالامر السهل » اه

ولا يخفى انه يعني بكلامه الاسلام والمسلمين لان الكلام معهم وهم الذين نشروا الكتب والجرائد في القطر المصري ويسهل عليهم الجواب الذي حسبه صعباً حضرة السائل وهو

ان الكاتب اعترف معنا بان فهم الدين على غير وجهه انما وقع في الاسلام من نحو الف سنة أي من بعد انتشار البدع وتفرق المذاهب في الدين الواحد الذي جاء بالتوحيد والتأليف ونهى عن التفرق والاختلاف وبديهي ان أصحاب الآراء والمذاهب من أهل الاهواء يحاولون تعزيز مذاهبهم بالشبه مهما تضاءلت اقتضاحاً . ويؤلون الحجج المخالفة لهم مهما أضاءت اتضاحاً . فهذا هو السبب الاول في سوء فهم الدين الاسلامي والانحراف به عن صراطه والسبب الثاني اختلاط المسلمين بامشاج من جميع الامم والملل دخلوا في دينهم ومنهم الصادق ومنهم المنافق وهؤلاء اجتهدوا في افساد تعاليم الدين وادخال بعض مسائل من أديانهم السابقة مصبوغة بصبغة الاسلام ووضع الاحاديث المكذوبة على صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم والسبب الثالث العدوى المعنوية وهي انه مامن رجلين يتصاحبان أو شعبين يتمازجان الا ويسري من اخلاق احدهما وآدابه شيء للآخر وكذلك دب الى الاسلام داء الامم قبلهم وكادوا يتبعون سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعا بذراع كما في الحديث الصحيح * بذرت بذور هذه التعاليم المضرة في أرض الاسلام وسقيت بامواه التعصبات والاهواء فنمت بالتدريج حتى صارت دوحات كبيرة تساقط منها الثمرات المضرة وكان من نبه لها من العلماء الراسخين انما يسعى في قطعها لا في قلعها ولذلك عاد كلما قطع منها أبسق مما كان . نشير بهذا الى ما كان من مقاومة تلك التعاليم الفاسدة في كل عصر وان لم تقو

عليها وهو جواب عن قول المقتطف (وهل اساء كل علماء المشرق فهم دينهم منذ الف سنة او حواليها) نعم ان القرون الثلاثة الاولى هي التي كان الغلب فيها لتعاليم الدين الصحيحة واخلاقه وآدابه كما هو الشأن في كل دين ووفاقا للحديث الشريف « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » فقول المقتطف لا يفتش عن فعل الدين في حروف كتبه بل في اخلاق اتباعه وافعالهم غير مسلم على اطلاقه فان الكتاب الذي هو اصل الدين كالقرآن مثلا اذا كان مصرحا بشيء فلا مندوحة عن القول بانه من الدين وان خالفه الذين يدعون اتباعه . نعم لا يجوز ان يتفق المنتسبون لدين من الاديان على مخالفة اصوله في عصر النبوة وما يقرب منه ولكن اذا طال الزمان تفتن الامة بالتحريف والتأويل وتضل سواء السبيل الا افراداً لا يكون لهم صوت في الامة مسموع واصحاب المقتطف يعرفون هذا من تاريخ الملل والى هذا يشير قوله تعالى « ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » اي خارجون عن هدي دينهم ونحن نأتي بمثال واحد مما خالف الجماهير فيه هدي الدين الاسلامي وهو من اصول العقائد ومن اهم ماجاء به الدين ومما له اثر كبير في سعادة الامم وشقائها ألا وهو الاعتقاد بان لبعض البشر تأثيراً في النفع والضر بقوة غيبية وراء الاسباب الظاهرة التي اقتضتها الحكمة الالهية وجعلتها مناط الاعمال

هذا الاعتقاد هو الذي شقي به قبل الاسلام من لا يحصى من الاقوام . هذا الاعتقاد هو الذي يقيد ارادة الانسان بارادة غيره من ابناء جنسه فيفقد استقلال الارادة الذي هو العامل الاكبر في السعادة البشرية . هذا

الاعتقاد هو الحجاب الكثيف بين الانسان وبين معرفة السنن الالهية في الترقي والتدلي وادراك اسباب الضر والنفع . هذا الاعتقاد هو المرض الذي يفسد العقل ويجعله يرجو مالا يرجى ويخاف مما لا يخاف . هذا الاعتقاد هو شعبة من الشرك كانت اكثر شعابه امتداداً وانتشاراً في الامم كلها ولذلك كانت عناية الاسلام بمحوه فوق كل عناية . يتوهم كثيرون ان الكفر والشرك اللذين يندد باهلهما القرآن كثيراً هما عبارة عن انكار وجود الله تعالى وعن اعتقاد ان للكون آلهة غيره يخلقون كما يخلق ويرزقون كما يرزق مع ان هذين القسمين من الناس كانوا اقل الكفار والمشركين في كل زمان ومكان . وانما الشرك الذي كان فاشياً في العرب وغيرهم ممن ظهر الاسلام فيهم هو الذي قال القرآن في اهله (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم) ومثل هذه الآية آيات . كانوا يعتقدون كما يعتقد اكثر البشر ان مبدع الكون وخالقه واحد ولكنه لما كان غيباً مطلقاً جعلوا وجهتهم في عبادته بعض مظاهر قدرته الباهرة من خلقه من جماد وحيوان وانسان وزعموا ان تلك المظاهر هي الواسطة بين الله وبين عباده في نفعهم وضرهم ويعلل علماؤهم ذلك بان عامة الناس من الخطاة والمذنبين لا يليق بحسنهم ان يخاطبوا الجناب الالهي الرفيع بحاجهم فلا جرم كانوا في حاجة الى واسطة بينهم وبينه كما هو الشأن عند عظماء الملوك والسلاطين . وهذا وان كان في ظاهره تعظيما لله تعالى فقد عده القرآن شركا وذكر شبهة ذويه في معرض التشنيع والانكار حيث قال (انا انزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الخالص والذين اتخذوا من دونه اولياء مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم

فيه يختلفون . ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار) وقال (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل انتبئون الله بما لا يعلم مافي السموات وما في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون) فانظر كيف لم يعتد بان اتخاذهم شفعاء ناف لكونهم معبودين لهم وكيف صرح بان دعوى الشفاعة افتآت على الله تعالى حيث لم يكن باعلام منه . وقال فيمن كان يعتقد هذه الوساطة والشفاعة من أهل الكتاب (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الهاً واحداً لااله الا هو سبحانه عما يشركون) ومعلوم ان اهل الكتاب لم تقل فرقة منهم بان رؤساءهم ارباب حقيقة يشاركون الله تعالى في الايجاد والاعدام كما هو معروف من تاريخهم وانما هو اعتقاد الشفاعة والوساطة بين الله والناس في مصالحهم (١)

الواسطة الصحيحة بين الله وبين عباده هم الانبياء ووساطتهم انما هي في التعليم والارشاد لا في الخلق والايجاد وقد بين الله ذلك في آيات كثيرة جاءت بصيغة الحصر لتكون نصاً قاطعاً لاعناق الاباطيل منها قوله تعالى «وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين» وقوله (وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا) وقوله «ان عليك البلاغ» وقد نفى عن النبي الاعظم السيطرة والوكالة على الناس بقوله (وما انت عليهم الا بمسيطر) (وما انت عليهم بوكيل) ونفى عنه الهداية بمعني الايصال الى الخير بالفعل بقوله (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) وقوله (انك لا تهدي من من احببت ولكن الله يهدى من يشاء) بخلاف الهداية بمعني الدلالة بالتعليم

(١) ليس غرضنا في هذا الكلام الرد على هذه الفرقة من أهل الكتاب وانما هو بيان ما هو تعليم القرآن في هذه العقيدة

فقد قال فيها (وانك لتهدى الى صراط مستقيم) وامره ان يتنصل من دعوى النفع والضر بقوله تعالى (قل لااملك لنفسي ضراً ولانفعاً الا ماشاء الله ١ بل امره ان يتبرأ مع ذلك من امتلاك الرشد لهم بقوله (قل اني لااملك لكم ضرا ولارشدا ٢ قل اني لن يجيرني من الله احد ولن اجد من دونه ملتحدا ٣ الا بلاغا من الله ورسالاته) اى لااملك الا البلاغ من الله تعالى فلم يبق الا انه كما قال الله تعالى (قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي) الخ

هذا كله نقطة من بحر توحيد القرآن ومع ذلك كله كان من امر المسلمين نحو ماقاله المؤرخ المحقق (دوزى) الهولندي فيما كتبه في الاسلام حيث قال مامثاله (ان محمدا (عليه السلام) بذل كل فصاحته وجميع عنايته في اجتثاث جذور الوثنية ومحو اساطيرها من لوح الوجود وظل يجاهدها عشرين سنة حتى ظفر بها واستبدل بها التوحيد الخالص ولكن النوع البشرى لما رسخ فيه من جذور الوثنية بالوراثة المتمكنة في الاحقاب الطويلة لم يكن مستعدا للثبات على هذه العقيدة عقيدة التوحيد ولذلك لم يمض على اتباع محمد اكثر من قرن واحد حتى ثابت اليهم الوثنية السابقة بأنواعها ولكن باسماء والوان اخرى) ومن عرف الاسلام والمسلمين يعرف صحة قول دوزي هذا . دع عنك ذكرى الذين قالوا بالوهية الامام علي (كرم الله وجهه) في

(١) المعنيان للهداية معروفان في اللغة وفي الغالب يتعدى اللفظ بالمعنى الاول بنفسه وبالمعنى الثاني بالى (٢) قوله تعالى (الا ماشاء الله) هذه الكلمة جاءت في القرآن بمعنى التأبيد كقوله تعالى (خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك) وقوله (سنقرئك فلا تنسى الا ما شاء الله) (٣) في الآية احتباك أي أملك لكم ضراً ولانفعاً ولارشدا ولا غواية فحذف من كل منهما ما أثبت مقابله في الاخرى (٤) ملتحداً أي ملتجأ التجيء اليه

العصر الاول فقد كان صوتهم ضعيفاً وضلالهم معروفاً وارم بنظرك الى فرق الباطنية الذين كانوا سلافي رثة الامة لم تنج من كروب ميكروبه طائفة منها خلقوا الاحاديث وحرفوا كلم القرآن عن مواضعه وسرت فتنتهم الى الطائفة المعتدلة من المسلمين باسم التصوف فآل الامر الى ان فشا في اهل السنة الغلو في شيوخ الصوفية كغلو الباطنية في أئمتهم وخلفائهم . وهو اعتقاد ان لهم تصرفاً في الكون وراء الاسباب الظاهرة . فالجاهلون يعتقدون ان هذا لهم بأنفسهم ولا يتفكرون بالوساطة وما في معناها من التأويلات حتى اننا نشاهد عامتهم تتحامى الحلف كذباً بالشيوخ المعتقدين لاسيما عند اضرحتهم ويحلفون بالله كذباً وهم يعلمون . ويشاركهم في هذا التعظيم والاعتقاد كثير من اللابسين لباس العلماء ولكنهم يؤولون لهم ولانفسهم بان المحظور في الدين انما هو الاعتقاد بالاستقلال وهم انما يعتقدون انهم واسطة بين الله والناس . ولكن اذا سألتهم مامعني هذه الواسطة وماهو الدليل عليها وكيف لم يصرح بها القرآن وهي في هذه المكانة من الاهمية والله يقول (مافرطنا في الكتاب من شيء) وكيف يمكن تأويل النصوص الكثيرة التي تنفيها ـ اذا سئلوا عن هذا يرتكسون بين امواج الحيرة يدفعهم ريب ويتلقاهم شك الى ابد الابيد

ياسبحان الله . ان الله تعالى وصف مشركي الجاهلية بانهم عند شدة الضيق يدعون الله تعالى وحده مخلصين لامتوسطين فقال (واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذاهم يشركون) ولكنا نرى المتسمين بسمة الاسلام ينادون عند أشد الضيق ياباز ياسيد يارفاعي يامتبولي وما اشبه هذه الاسماء التي ماانزل الله بدعوتها من سلطان أليس من العجيب ان يقال ان الدين لايؤخذ من كتبه فتترك نواهي

القرآن البليغة الصريحة عن الشرك الظاهر والباطن ويحكم على الاسلام بقول هؤلاء الغوغاء الذين يزعمون ان المتصرفين في الكون أربعة ـ الجيلي والرفاعي والبدوي والدسوقي ـ اذا كان لله سبحانه وكلاء من الاموات يدبرون الكون فلماذا لم يكن منهم ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام. تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيرا

وقد طال بنا الشرح فلنمسك عنان القلم فقد حصحص الحق وظهر ان انحراف الكثير من الناس عن هدي الاسلام من سوء الفهم وان سوء الفهم ليس لصعوبة احكامه وبعدها من الافهام وانما هو لامراض اجتماعية طرأت على الامة فحالت دون انتفاعها بدينها كما حالت دون الانتفاع الكامل بعقولها وحواسها . ولما كان الاسلام دين الفطرة بشهادة القرآن فاننا نرجو كما يرجو عقلاء العلماء من المسلمين ان يكون ظهور قوانين الفطرة ونواميسها من أعظم المنبهات الى فهم الاسلام على حقيقته . ولسنا نقول بهذا انه بين جميع نواميس الطبيعة ولكن نقول انه بين مايحتاج اليه الناس لسعادتهم في دينهم ودنياهم وسنبين هذا في مقالة اخرى انشاء الله تعالى

﴿ استنهاض همم ﴾

٧

اذا بقيت الحكومة المراكشية تتسكع في ظلمات الجهالة وتتنكب مناهج العدالة واسترسلت في اعراضها عن ملافاة الخلل وشعب الصدوع التي تودي بمملكتها وتهوي بها الى هاوية الاستعباد وتزج بها في عالم الخفاء لاجرم انه يصيبها ما أصاب جارتيها الاندلس والجزائر ومما يبعث الشجن ويزيد في الحزن وتجيش النفوس له حسرة مانقرأه لهذه الايام في صحف الاخبار عن جوائب